قصة قصيرة

ماي وستْ الهائلة

إدوار الخراط

في هذه التنويعات الروائية نُتَفٌ من سيرة ذاتية. صحيح. ومع ذلك لم التزم قط بحرفية الوقائع ولا رقمها. أما الوقائع مبرحة الإيلام فهي هي، بحرفيتها، وهي التي تدعو للجنون، جئت بها من ديوان هذا الزمان، في الصحف والمجلات، لم أخرم منها حرفاً.

أما شطحات الفانتازيا والخيال وخطفات الرؤى الشعرية فهي عندي جوهر الواقع الحق.

على أن العقل وحده يظل دائماً هو الإمام الحقّ في الكتيبة الخرساء.

هل يهم كثيراً أن يكون ذلك قد حدث في كولومبو سريلانكا، أو كوتونو بنين، أو كوالالمبور ماليزيا؟

كنا قد فرغنا تقريباً من كل شيء، وبعد سهر طول الليل، ونقاش ومساومات وصفقات سياسية (وغير سياسية أيضاً) انفضت لجنة الصياغة وهي كما لا يخفى لجنة تمثل كل الوفود وكل الاتجاهات، بعد أن أقرت البيان العام والقرارات السياسية والتنظيمية للمؤتمر، ولم يبق الا اعتمادها – شكلياً – من المؤتمر كله منعقداً على هيئة جمعية عمومية.

انتهت السكرتارية الفنية من إعداد مجموعة القرارات والبيان العام على ورق الاستنسل، لم يكن التصوير الآلي قد عُرف أو انتشر، ولكننا لم نطبعها، تحوطاً من إدخال ما قد يعن للجمعية العمومية من تعديل طفيف، تغيير كلمة هنا، إضافة أو حذف كلمة

هناك، لا أكثر في الغالب، وإن كان ذلك يكتسب خطورة أو أهمية كبرى عند أصحاب هذه التعديلات.

أبقيت الوثائق على ورق الاستنسل الحرير، من غير طباعة، بعد أن تأكدت من مطابقة اللغات العربية والانجليزية والفرنسية بعضها بعضاً، وخرجت من قاعة السكرتارية الواسعة المكدسة بالملفات والمسودات والبيانات وأصول كلمات المندوبين ورسائل رؤساء الدول والحكومات والمنظمات، كانت سامية وسوزان وحازم قد أتموا الترجمة والمراجعة، وكانت أوديت وأحمد وشفيق قد كتبوها على الآلة الكاتبة، أما عديلة وهناء فقد أرشفوها ووثقوها وأودعوها ملفات مرقمة في ترتيب محكم وضعتُ برنامجه من زمن طويل، ولعله ما زال متبعاً حتى الآن في دول عربية وافريقية كثيرة، وجهزها محمد رفيق لكي تحزم وترزم في طرود متينة سوف تَحملها – معنا – الطائرة المغادرة إلى القاهرة.

لم أكن نمت إلا ساعتين أو أقل على وشّ الفجر، بعد أن راجعت واستوثقت من كل شيء، وأبقيت معي «نواةً» من أعضاء السكرتارية من كل التخصصات، احتياطياً، بينما سمحت للباقين بالاخلاد إلى راحة وجيزة، تلك كانت أيام الحماسة والايمان والتفاني من أجل ما كنا نتصوره حرية افريقيا وآسيا وكرامة شعوبهما ورخائها.

هل هي أحلام راحت وضاعت حقاً؟

سلمت رئيس المؤتمر، وسكرتير عام التضامن، ورؤساء الوفود نسخاً موثوقة من وثائق الجمعية العمومية، وركنت إلى مقعد في قاعة المؤتمر التي ران عليها الآن هدوء الجدية وتوتر اللحظات الأخيرة المكتوم، وبينما يتردد صوت المتكلمين على المنصة، وأصداء غمغمة المترجمين الفوريين في مقاصيرهم الصغيرة تتذبذب بها أجهزة الاستماع الالكترونية الرشيقة – أمدتنا بها ألمانيا الديمقراطية كما كانت تسمى حينذاك – جلست أغالب هجمات الإغفاء، فليس في كل ما سوف يقال أو يجري جديد عليّ. كنت قد وضعت مع الرئيس والسكرتير العام، سيناريو هذه الجلسة الختامية، وترتيب أحداثها، وكان في يدي مشروعات الوثائق، وأنا أتابع ما يجري، أدخل بالقلم الرصاص ما تقره الجمعية العمومية من تعديلات، فإذا انفض الجمع كانت مشروعات القرارات – والبيان العام – قد تحولت إلى صياغة نهائية معتمدة. وبعد حفلة الكوكتيل المعتادة في غضون ساعتين أو نحوهما وزعت نسَخ القرارات باللغات الثلاث على المؤتمرين والصحافيين ومندوبي السلطات والجهات المسؤولة على أنواعها.

آلية كواليس المؤتمرات المألوفة

لم أعرف إلا بعد ذلك أن طاقم السكرتارية الفنية خرج للتسوق من السوبرماركت القريب أو من الاسواق والدكاكين البلدي البعيدة شيئاً ما، تلك كانت آخر فرصة متاحة للخروج، بعد أن الزمتهم مواقعهم أن يعملوا بلا هوادة ترجمة ورقماً على الآلة الكاتبة ومراجعة وأرشفة طوال أيام المؤتمر ولياليه.

أقفلت أليس قاعة السكرتارية بالمفتاح على اعتبار أن كل شيء قد انتهى تقريباً، وأن هناك فسحة ساعة على الأقل أو ساعتين قبل أن ينفض المؤتمر: إقرار الوثائق وإلقاء الكلمات الختامية وقراءة رسائل التأييد التي وصلت من رؤساء الدول والحكومات والنقابات والهيئات الدولية والاقليمية والمحلية.

لا .. هناك وقت كاف.

وكنت قد وعدتهم بأن أتيح لهم فرصة للخروج والتسوق، فها هي ذي الفرصة إذن.

المترجمون والمترجمات في مقاصيرهم يترجمون ما يقال فورياً، سامية في مقصورة الترجمة للفرنسية، النور الصغير المسدّد الى المنصة الصغيرة أمامها وعليها الميكروفون، ينعكس إلى أعلى، فيضيء صدرها الكبير، نصف العاري في الحرّ، وهي تصب في الميكروفون فرنسيةً رتيبة الايقاع كأنها طنين نحل تتصل فيها الكلمات والجمل والعبارات في أزيز ذبدية الاجهزة.

هل كانت سامية، أم مترجمة أخرى عارمة الحيوية فياضة بالأنوثة، هي التي حكت لي مرة أنها كانت وحدها في مقصورة الترجمة الفورية. المقصورة سخنة نار، لم تنفع المروحة الصغيرة في تخفيف الوقدة الثقيلة، وهي مندمجة في العمل أخذتها حميا الترجمة، أطفأت النور الأمامي الصغير واعتمدت على السماع، خلعت البلوزة وانهمكت في الترجمة وهي بالجوهريات العارية، ثم فكت السوتيان أيضاً، والمقصورة الآن معتمة تماماً وهي تترجم عارية الصدر، متخففة وحرّة، قالت لي إنها لم تترجم قط بأحسن ما ترجمت يومها، وجاء سيكو توري نفسه بعد الجلسة ليهنئها على جودة الأداء.

وصلت في آخر لحظة ثلاث رسائل من كوبا، احداها من فيديل كاسترو والثانية من أرنستو جيڤارا، والثالثة من منظمة تضامن القارات الثلاث، وكان لا بد من ترجمتها ومراجعتها وطبعها وتوزيعها على المندوبين قبل رحيلهم إلى بلادهم، وإلا قامت أزمة غير مأمونة العقابيل، فذهبت لأعني بالأمر وأنسق سير العمل وأتأكد من سلامته، فتركت قاعة الاجتماع الفسيحة الغاصة بالوفود والصحافيين وكاميرات التلفزيون القديمة تئز بخفوت وفلاش كاميرات التصوير يبرق ويخبو ويدقدق، وصدى الميكروفونات يتذبذب، وعبرت الردهة، وطلعت السلالم.

وجدت قاعة السكرتارية الفنية مغلقة بالضبّة والمفتاح، ولا أحد هناك. لا أحد على الاطلاق.

كان الموقف عصبياً.

هكذا أحسست لحظتها. كم يبدو هذا، الآن، مضحكاً قليلاً. ساعتها كان الأمر جدياً، وخطيراً، بل شبه تراجيدي.

فجأة لمحت محمد رفيق بقامته الفارعة وأناقته المتميزة حتى بعد الكدح الطويل الشاق، بوجهه الطلق السمح. أقبل عليّ يتهادى متمهلاً، على راحته، محملاً بأكياس المشتريات وثمار التسوق الناجح، فاحت منه رائحة الحبهان والتوابل والأناناس والباباي، فناديته بلهفة، وبنبرة عرف فيها على الفور ودون أن أتكلم، مدى الغضب والتأزم عندي.

– تحت أمرك .. هل هناك شيء؟؟ ألم يكن كل شيء قد انتهى؟

عندما عرف الموقف قال لي بهدوء «ولا يهمك، في ثوان سوف أحل المشكلة».

خلع جاكتته الصيفي الخفيفة وشمّر كُمّيْ القميص الحرير المشجّر وفكّ الكراڤتة بسرعة خاطفة، ثم انحنى، وخلع حذاءه، وبقي بالشراب، وأنا أرقبه بدهشة، ثم لمع في ذهني ما كان بسبيله أن يفعل.

استدار محمد رفيق وخرج من شرفة البهو إلى الجدار الذي تطل منه النافذة الزجاجية العريضة المقفلة، على قاعة السكرتارية.

بعد نظرة سريعة تشبثت يداه بالجدار، قدماه بالشراب القطن ترتقيان الافريز الضيق الذي يدور بالجدار، تزحفان بحرص – كأن لهما حياة مستقلة – على عشر سنتميترات أو أقل من إفريز الجدار، جانب وجهه ملتصق بالحجر، لا ينظر – طبعاً – إلى أسفل، من علوّ ثلاثة طوابق.

كان أشبه بممثل في فيلم سينمائي يحتال لكي ينفذ إلى نافذة حبيبته، أو كي يفتح الخزانة التي فيها المجوهرات وآلاف الدولارات، أو أخطر المستندات.

وكما يحدث في الأفلام تماماً، للإثارة وحبس أنفاس المتفرجين، وبشكل لا يصدق وإن كنا قد رأيناه في السينما عشرات المرات، اهتز قليلاً وأفلتت يده الجدار، وتمايل على وشك السقوط.

خفق قلبي وهممت بخطوة إلى الأمام كأنني أريد أن أسنده، لكنه سرعان ما استرد توازنه، على الفور.

في الأسفل، في فناء مبنى المؤتمرات، التم جنود الحرس، رفعوا بنادقهم، اقتربت رؤوسهم؛ يتكلمون بسرعة ويشوّرون، متحفزين.

استدرت إلى المرافق الذي وجدته بجانبي، كأنما انشقت عنه الأرض، وقلت له بلهفة: أخبرهم أن كل شيء على ما يرام.

قال : ما هذا ؟ ماذا يحدث هنا؟

قلت : أخبرهم فقط أن كل شيء على ما يرام الآن. بعد ذلك أحكي لك.

بادر المرافق، فقال للحرس بلغتهم الاصلية المشتركة، كلاماً سريعاً مندغماً ملهوفاً وناعم الحواف.

كان الجنود قد ترددوا لحظة قبل اطلاق صيحة التحذير أو زخة المدفع الرشاش. لو فعلوا لحدثت بالتأكيد كارثة. هل شفع لمحمد رفيق، عندهم، لون بشرته الفاتح نسبياً وإن كان محموشاً قليلاً، أم كان بالعكس داعياً للضرب؟

قلت للمرافق: يا أخي قاعة السكرتارية الفنية مقفلة، والمفتاح ضاع، لم نعرف كيف نحصل على نسخة احتياطية منه، السكرتير زميلنا سيدخل من الشباك لمسألة مهمة جداً.

طبعاً ترجمت رسائل كاسترو وجيڤارا والڤارات الثلاث وطبعت ووزعت في الوقت المناسب تماماً، بالكاد.

هل كانت المسألة تستحق؟

هل كل المسألة تستحق؟

كنت يومها قد استيقظت من نوم قلق حار، في شاليه مبنى الضيافة المحيط بحمام السباحة، بعد ساعتي نوم، وذهني فيه ألف مشكلة ومشكلة لا بد أن تحلّ أو تحسم في دوران عجلة سير الشؤون الفنية كلها للمؤتمر. وفي أذني رنين الصنوج في يدي العازف الأعمى المقعي تحت بوابة أبيدوس، وقرقعة الصاجات في أصابع راقصات اوزيريس، وفي يدي راقصة بغداد القادمة أصلاً من باب الشعرية، وهي في بدلة الرقص الشفافة السوداء المشغولة بالترتر، والعازفات على العود والهارپ عاريات إلا من شريط حريري رفيع يلف الحقوين ويبرز اكتناز الردفين المضمومين ورشاقة الخصر الهضيم يرد عليهن لاعب العود، بالجلابية، مع التخت العربي من شارع محمد علي، في فرح بلدي على سطح بيت وراء جامع السيدة نفيسة.

عندما خرجت، نصف نائم، من باب الشاليه إلى الباحة الوسطانية التي يملؤها حوض السباحة المستطيل، ضربتني شمس افريقيا وهواؤها السخن الثقيل. فتحت عيني بدهشة إذ أرى الأمين العام بنفسه، يذرع الحوض سباحةً، ذهاباً ومجيئاً، بجسمه القوي العسكري مليئاً ولكن رشيقاً حتى في عزّ كهولته، يضرب بذراعيه وساقيه بحركة هادئة منتظمة، وبدلاً من مايو السباحة، لم يكن عليه الا الشورت الداخلي الخفيف من الفانيلا القطن الناصعة. وقد وقف بعض المندوبين والمترجمين – والمترجمات – لحظة، يرقبون المشهد بابتسامات صامتة وبشيء من الإعجاب وربما الحسد لأنه – هو – جرؤ على ما لم يستطعه أحد، ولم يفكر به أحد. وكان الحرس الافريقيون، شاكي السلاح، متحلقين حولنا، في جذل.

وفي دقائق رأيت أحمد فتيح، مندوب فلسطين الفتي الوسيم يثب الى الماء، بالشورت الداخلي أيضاً، ويصاحب الأمين العام في سباحته الهادئة، وإذا بالجميع، بحركة مفاجئة وعفوية، يصفقون بحماسة وفرح.

خرج الأمين العام والماء يقطر من جسمه الرياضي المفتول الذي سوف أراه بعد سنوات مجندلاً في دمه، ممدداً على بلاط ردهة فندق شيراتون في ليماسول، مغطى بملاءة بيضاء، ساكن الأسارير، كأنه يرتاح.

قال لي، وهو ينهج قليلاً: انزل الماء أنت الآن. لا تتصور الفرق ..

قلت : يوسف بيه، أنا أولاً لا أجيد السباحة، اسكندراني صحيح ولكن بالكاد أطفو على الماء .. ثانياً.

قال: كفاية «أولاً» تكفي وزيادة يا أخي.

ما زلت أطفو، بالكاد، على مياه محبات لا تنضب ومعاشق لا يجفّ لها مَعين.

رسم فيليني صورةً بالقلم لامرأة مدوّرة الوجه، شفتاها داكنتان باللمى، لحيمتان، وتحت عينيها خط أسود ثقيل، شعرها يسقط على عينيها مهوّشاً وينسدل على جانبيْ ظهرها، في صدارة الصورة ثديان هائلان يتفجران من أعلى كتفيها مباشرة ويتدفقان بعرامة وفخامة يتجاوزان بلاطة صدرها التي اختفت تحت ثقلهما، الحلمتان بندقتان

مدورتان، خلفية الرسم وراء الرأس وتحت الثديين ضربات عشوائية بالقلم الأسود، وكتب بجانب الرسم بالخط الكبير MAE وباقي الاسم بخطٍ صغير West، مايْ وست الأسطورية في الثلاثينات والأربعينات.

«كان الثديان العظيمان يملآن العالم لكن جمالهما وصباهما يخطفان النَفَس، مشدودين، الحلمة منتصبة وطويلة، في حجارة بوبيللو، على مذبح ديونيزيوس. أما من «بنات اسكندرية» فقد كانت ستيفو اليونانية رخيمة الصوت هادئة الطبع دمثة، لجمالها طراوة وابتلال، تسير شامخة الصدر بين المكاتب المتقاربة في القاعة المزدحمة بالموظفين والآلات الكاتبة ورنين التليفونات وأضواء النيون، في شركة التأمين الأهلية. في أوائل الخمسينات، كانت ستيفو رابية، زاكية العود وممشوقة على امتلاء جذّاب، بلوزتها الحريرية المفتوحة تحتشد بثدييها الكبيرين في غير ترهّل ولا سقوط، سمّاها صديقي فريد اسكاروس «البقرة» The Cow ايحاءً منه بخصوبتها ووداعتها معاً، أو قدسيتها ربما، وسرعان ما شاع اللقب بيننا، عرفته ستيفو وكأنها قبلته عن طواعية فكانت تبتسم قليلاً عندما تسمعه يتردد بيننا. في ١٩٥١ كان ذلك ممكناً، كان مثل هذه الدعابة بكل حسن نية مقبولاً بل طيباً، نادتها به ايڤيت ساسون، اليهودية الاسكندرانية بنت البلد المتفجرة بالمرح والحيوية والمعابثة، وضحكتا معاً، وسط الشُغل، ضحكة صافية.

في سايتريكون جاءت احدى هلاوس فيليني المجسمة، بأثدائها الهائلة ـ هل هي تجسيد لحلمه بماي وست؟ ـ ساعداها مكوّران لحمهما مدوّر كأنهما ثديان آخران، اليد بأصابعها الدسمة تسند أحد الثديين، فيها أسورة عريضة منقوشة، أما إزارها الهفهاف فيخفي ساقاً وينفرج عن الساق الأخرى ربلةً مدملجة تدور بها سيور الجلد التي تنتهي بنعل لا يربطه بالساق إلا أحزمةَ وثيقة، أثداؤها الهائلة على الصدر وعلى الذراعين وفي الساق العبلة بل في الأصابع المكوّرة، كلها أثداء، تحدجنا بنظرة غائبة كأنها تأتينا من حشو حلم جسدانيّ كثيف فيه أثارة من شجو ولمحة من زهو معاً.

وفي مجلة «الشعلة» (١٦ سبتمبر ١٩٣٨) أنّ «مايْ وست تعود الى تمثيل أدوار الفاجرات، وهي الأدوار التي سبق أن نجحت في تمثيلها على مسارح برودوايْ بنيويورك.. اقتنعت هوليوود بصواب هذا الرأي ولولا ذلك لغادرت مايْ وست عاصمة السينما ولحُرم العالم من نجمته المحبوبة ذات الجاذبية الجنسية المتوقدة.. وماي وست مؤلّفة من أكثرَ مؤلفات العالم شهرة ونجاحاً (كذا!!) وهي التي تؤلف القصص التي تبنى عليها أفلامها، كما أن لها عدة مسرحيات ناجحة مثلت بعضها بنفسها في برودواي قبل أن تذهب الى هوليوود (من أشهر المؤلفات في العالم.. مرة واحدة.. يا سلام!) ولما ضاقت الرقابة ذرعاً بمايْ وست كلّفت البوليس بالقبض عليها وزجّها في السجن ثم قدّمتها للمحاكمة بتهمة إفساد أخلاق الشبان (نفس التهمة التي تجرع سقراط السمّ، بسببها، في أثينا، قبل عشرين قرناً.. فتأمّل) ولكن المحكمة برأتها (كما لم تبرىء محكمة أثينا الشعبية سقراط) بعد أن قالت في حيثيات حكمها إن هزّ الأرداف وأنواع الدلال والقدرة

على جذب الرجال فنّ جميل ولذيذ.. كمان. ولكن رجال الرقابة لا يفقهون» أيْ والله.. بالنصّ، في العدد ١٣ من مجلة «الشعلة».

ما الذي حفز الولد الذي كنته، وعندي اثني عشر عاماً، بالكاد، أن يحتفظ بهذه القصاصة، وأن يظل محتفظاً بها حتى الآن وقد اصفرّ ورقها، بعد ستين عاماً؟ وفيها صورة ماي وست بالأبيض والأسود، رشيقة ناعسة العينين، في روب أسود دانتيللا يفصح عن جانب صغير من صدر دسم وضيء، وشورت ساخن يبدو أنه من مخمل أسود أيضاً، تندلعُ منه فخد مدورة يقطعها، بقسوة، اطار الصورة، فوق تليفون المجلة ٤٥٣٤٣ وإعلان عن الاشتراك السنوي وهو ٥٠ قرشاً؟

هل ذلك لأنني ـ مَثَلاً ـ كنت أحتفظ بالقصاصات المنشورة عن أشهر الكُتّاب في العالم؟ هل صدّقتُ؟

أم لحافز آخر استطاعت هذه القصاصة أن تتحدّى مدّ السنوات وجزرها وأن تحيا في الروح، والجَسد، حتى هذه اللحظة؟

في ١٥ يناير ١٩٠٢، ثانية سنوات القرن العشرين، نشرت الأهرام العتيدة انه «يوجد في العربية كتاب يُسمى «رجوع الشيخ الى صباه» وهذا الكتاب تتداوله الأيدي كثيراً، ترجمه أحد الانكليز المقيمين في باريز الى الفرنسية وأذاع عنه اعلاناً في شوارع المدينة فقبض البوليس على الإعلان واستاق المترجم الى المحكمة لإحراق الكتاب. وحكمت المحكمة على المترجم المستر كارنجتون بغرامة ٣ آلاف فرنك لاختراق حرمة الآداب العمومية».

هل كنت في العاشرة، في السنة السادسة والثلاثين من القرن العشرين، عندما كنت أدق باب الشقة التي تحتنا في شارع الكروم لآخذ رواية من روايات روكامبول أو رواية «سافو» لألفونس دوديه، من خزين فتحي أفندي؟ كانت امرأة أخيه، الست وهيبة تخرج لي، على السلالم، في جلابية البيت، فضفاضة، بها لمعة وملاسة من القدَم والاستعمال، واسعة الفتحة يبدو منها صدرها العريض الأسمر حراً لا يمسكه سوتيان، في تلك الأيام لم يكن لبس السوتيان العصري شائعاً. كانت تنحني عليّ وتبوسني في وجهي، فيغمرني الثديان الكبيران برائحة خصيبة خمرانة تفغمني وتسكرني لحظة، لم يكن عندها أولاد، وسمعتها مرة تقول لأمي «ياحْتي يا حبيبتي دانا أتزوّق للباب قبل ما أنفضه وللشباك قبل ما أقفله» لم تكن لعوباً بل كانت سيدة ناضجة الأنوثة تُعزّ جسمها وتدلله. كانت دائماً متعطرة برائحة فيها إثارة من صندل، أو عنبر، وشفتاها بَهما لَمَى داكن، ربّاني أو مضرّج بأحمر قاتم، لا أعرف...

ولا بد أنه في ذلك الوقت أخذني خالي ناثان إلى قهوة في شارع الخديوي، كان معه زملاؤه وأصحابه من سوّاقي الشاحنات والأجرة، يتناقشون هل يبدأون إضراباً للاحتجاج على تعسف الإدارة وملاحقة البوليس، أم يستمعون إلى نصيحة البرنس عباس حليم، صديق العُمّال، وقد وعد بأن ينظر في الأمر ويطلب من وزير الداخلية أن يلبي طلباتهم.

طلب لي خالي ناثان كازوزة ماركة «يحيى سعد» وكنت صامتاً يتفصد مني العرق في بعد الظهر الحار، والترام يخترق الشارع مصلصلاً وبهيجاً ومرحاً في طريقه إلى باب الكرسته ومينا البصل.

قبلها في الغرانة، جلسنا على الطبلية المدورة العريضة مع جدّي أرسابنوس وجدتي هيلانة وأختيَّ عايدة وهناء، الغدا كان أنجز عدس أصفر شهي متماسك القوام تسطع منه رائحة تملأ الخياشيم نشوةً ولذّة، مع أننا كنا في عز الصيف.

أعطى لي خالي ناثان فحل بصل كبير وقال لي: «دشُّه عَ الطَبْلية». ضربت فحل البصل بقبضتي مرة ومرتين، لكنه لم ينفلق بل لم يبدُ أنه انشرخ حتى، كان يتدحرج مني كل مرة. خطف خالي ناثان البصلة الكبيرة بغضب، وضربها بجمع قبضته بحركة مدرّبة قوية، فانفتحت وفاحت منها رائحة حريفة حرّاقة، ودمعت عيناي، هل من البصل أم من الحس بالخيبة والإحباط؟

عندما قمنا من قهوة الخديوي، حوّدنا يمينا في شوارع ضيقة ولكن خالية تقريباً، خالي كان عنده مشوار في شارع انسطاسي، وفي الطريق سرنا في شارع السيّالة.

رأيت ثلاث عربات حنطور تقرقع عجلاتها على البازلت، العربجية يفرقعون بالكرابيج، دون أن تمس الخيل التي ترمح، رافعة الرؤوس، تجلجل أجراسها، وفي العربات الثلاث رأيت النسوان تحت ملاياتهن السود المنحسرة عن أكتاف عارية، في فساتين قصيرة بحمّالات عريضة، الفساتين الحريرية الحمراء والمشجرة والمشغولة بالترتر والشفافة تنكشف عن سيقان إحداها فوق الأخرى تتأرجح منها الشكربينات الساتان اللامعة، الشفاه مصبوغة والوجنات مضرجة والكحل حول العيون ثقيل، والأثداء مشرعة نصف مكشوفة لحمها الطري أو المتهدل أو اللدن المتماسك يترجرج في اهتزاز الحنطور. كنّ راجعات، من الكشف الطبي الأسبوعي في قسم اللبّان، الى حواري حيّهن المأثور في كوم بكير، يغنين بالصوت الحيّاني وبنغمات تتسق أحياناً وتنشز أحياناً، ومعهن الطبل والرقّ والصاجات، والعيال في الجلابيب الشفّافة يرقصون في فسحة العربة الضيقة «سالمة يا سلامة.. رحنا وجينا بالسلامة» السيقان منحوفة أو ربلة أو عظميّة أو مدملجة مرفوعة أمام عينيّ، تبدو حلقة الأستيك العريضة الملّونة تحبك استدارة الفخذ وتشدّ الشراب الحرير الأبيض.

كانت واحدة منهنّ، على الأخص، ضخمة وركاء، شمخ ثدياها، متفجرين من تقويرة الفستان الواسعة. هائلان، فخمان، لهما مجد، بسمرتهما الناعمة، لمحتُ عليهما نزّ قطرات العرق الخفيف، يتموجان معها في حميا الغناء، «سالمة يا سلامة».

من تباريح الوقائع أن المحامي العام لنيابات جنوب الجيزة أمر بسجن سيدة تدعى صَدَقات ابراهيم جمعت في وقت واحد، بين ستة أزواج موزعين بين الجيزة والمنيا والاسكندرية والقاهرة والبحيرة وبني سويف، تزورهم جميعاً بانتظام، وتقيم أساساً في بيت زوجها الأخير في الجيزة.

وأن تلميذات، في تيبينج، ولاية بيراك الشمالية بماليزيا، يتقاضين عشرين سنتاً فقط

(أي ثمانية في المائة من الدولار الأمريكي) مقابل السماح لرجال بتحسس وجناتهن، وأن هذا المبلغ يرتفع مع تنامي رغبات الزبون في تحسس مناطق أخرى من وجوه التلميذات في المدارس الثانوية، الوجوه فقط.

وأن مباحث الجيزة كشفت عن سر غموض مصرع طالبة بكلية السياحة والفنادق، في العشرين من عمرها، بعد أن عُثر على جثتها ملقاةً على الأرض داخل شقة أسرتها بشارع حسين عباس بالعمرانية، ممزقة الملابس. تبيّن أن ابن عمها وراء الحادث، عندما فوجىء بالفتاة بمفردها داخل الشقة، فحاول اغتصابها. قاومته، وتناثرت في أثناء مقاومتها محتويات الشقة، وفاجأت الفتاة، في غمار المقاومة، أزمة قلبية إثر هبوط حاد في الدورة الدموية. ماتت.

أكد الكشف الطبي على الفتاة أنها ماتت بكراً.

لاذ ابن عمها بالفرار إلى سينا، كان يعمل محاسباً هناك في شركة خاصة، وقبض عليه: ودارت العَجَلة المعروفة من الاجراءات، التحقيق والنيابة والمحاكمة.

ماذا كان ثمن موت تلميذة السياحة والفنادق؟

وماذا يمكن أن أقول عن هذه الحكايات الوقائع التي تفوق خيالات الشطح والجنون؟ ما الذي أفعل إذ يشط بي جماح الكتابة بها، والقص واللصق، دون أن أملك لها كبحاً، دون تقية؟

أهذه أيضاً محنة لا مفرّ من أسرها؟

عندما انتهى المؤتمر على خير، أُقرت القرارات والبيانات، وتليت رسائل التحية من الرؤساء، والرسالة الختامية من أمين عام «حزب الثورة الشعبية». رئيس الدولة الذي دخل القاعة مدججاً بالنياشين والأوشحة ومحاطاً بكوكبة حرس الشرف المسلّح، المصافحات والقبلات الأخوية، صادقة أو مصنوعة حسب الطلب ووفقاً للظروف، سواء. انفض المولد إذن، وبعد العشاء اجتمعنا نحن السكرتارية الفنية، رجالاً وبنات، وبعض المندوبين الأصدقاء، منهم أحمد فتيح مندوب فلسطين وعبد الكريم الجيلاني مندوب اليمن الديمقراطية (حينئذ) في شاليه محمد رفيق، فتحت زجاجات الشمبانيا والويسكي التي جئنا بها على حسابنا الخاص من المطار، شربنا وغنينا أغاني سيد درويش وداود حسن، قمر في السما يلالي يطلع لم يبال، وأم كلثوم طبعاً وعبد الوهاب أيضاً، رقص حازم على واحدة ونص، وقامت سامية فأدَت رقصة مُلْهمة عرفت كيف تهز صدرها الكبير وردفيها الرفيعين نوعاً ما، طوّعت جسدها اللدن لموسيقى فريد الأطرش المسجلة، على الضباب الخفيف في رؤوسنا وراحة المرهَقين في جسومنا، على الفرح بالخلاص من كدّ المؤتمر وشدّ الأعصاب فيه.

الساعة الثانية بعد نصف الليل أوينا الى الفراش، أخيراً، من غير همّ التفكير في مشكلات الغد، لكني كنت ما أزال متوتراً وإن كنت مفرّغ الروح، منهك العقل والجسم معاً. رنّق النوم بعينيّ، لماماً. وخيّل إليّ بعد زمن لا أدري مداه انني أسمع شيئاً في باحة المبنى الذي أفرده الحزب لضيافتنا.

كان الحرس قد انصرفوا إلى حال سبيلهم، عرفت عندما عدنا للنوم، أنه لم يبق منهم فيما أُقدّر إلا واحد أو اثنان يغالبان النوم على أبواب المبنى من الخارج.

فماذا يحدث إذن؟

خرجت نصف نائم بالفعل.

على نور القمر الاستوائي الناضج ساطع التدوير، في سماء رائقة حارّة عميقة الزرقة، رأيت جسماً يطفو في حوض السباحة، هناك على الطرف البعيد.

ثم إذا هو يعوم ببطء ونعومة، لا يكاد يشق سطح الماء الساجي.

وكأنني في حلم تبينتُ سامية تسبح، عارية الصدر، ثدياها الكبيران يطفوان قبلها على الماء المشعشع بضوء السماء، وكأنها اهتزاز رقرقة الموج الطفيف، والضوء العلويّ، يضخّمان تدوير ثدييها فإذا هما هائلان، على بطنها المخنصر الدقيق يعلو ويهبط في حركة السباحة الرتيبة، وجهها يرتفع على الماء ويغوص، وشعرها الطويل معقوص ومربوط بتوكة معدنية تومض، ازدادت حلكة سواده من البلل، بالكاد لمحت القطعة السفلية من ملابسها الداخلية تلمع بلون أزرق موشّى بحاشية بيضاء رفيعة من الدانتيلا، تترجرج في تراوح الماء وتبادل اندفاع وانطواء الساقين السمراوين الطويلتين.

رفعت رأسها عندما وصلت عندي، وأنا على حافة حوض السباحة، وحدي في الليل. نظرت إليّ ببساطة وعمق بلا خجل ولا اعتذار ولا رغبة في التفسير أو التبرير، نظرة غامضة خيّل إليَّ أنها استمرت أمداً طويلاً، ثم استدارت وراحت تذرع الحمّام، ذاهبةً إلى بعيد.

دخلت، ولم أنم حتى الصباح.

خيّل إليّ أنني أسمع زئير السباع وحمحمة الحيوانات الحوشية في الغياض والآجام القريبة من مبنى الحزب.

التحديق في عين الشمس التحليق في الظلام النظر بلا تورّع إلى أشلاء الروح المعراة نَشْق نشوة خريفية ثقيلة الوطء الركض في مضمارٍ وعر غير مُعَبّد المهاد خلف خيولٍ ثائرة الأعراف بلا لجام.

سقوطاً إذن في مهاوي الوقائع دون ورع والتمرغ في حمأة الأحداث وفواجع الصحف اليومية التي لا يبالي بها أحد.

كأنني بهذا الاعتراف أمام كاهنٍ غير مرئي التمس مغفرةً لا احتاجها حقاً ولن تأتي على أيّ حال.

عمارة القلب الغاص بأشواق الهوى المضطربة تتهاوى أنقاضها من غير صوت.

* نصّ من كتاب «تباريح الوقائع والجنون: تنويعات روائية» يصدر قريباً.